في التصوف الإسلامي :

— الإمام الجنيد وبعض ملامح الشخصية الصوفية
للدكتور طه الدسوقي

من التراث الإسلامي :

— خمس رسائل من الحكيم الترمذي تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة
— سلوك العارفين للسلمي تحقيق الدكتور محمد ضياء الدين الكردي

القرآن

دكتور منيع عبد الحليم محمود
كلية أصول الدين — جامعة الأزهر

معنى كلمة القرآن : ١ — لفظ القرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة وهمزته أصلية ونونه زائدة ـ ثم نقل في عرف الشارع من هذا المعنى وجعل علما على الكتاب الكريم تسمية للمفعول بالمصدر .

وهذا القول خال من التكلف جار على أسلوب مألوف في اللغة وهو إطلاق المصدر مرادا به اسم المفعول . ويشهد لهذا القول ما جاء في القرآن الكريم (إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) وإلى هـذا ذهب اللحياني وجماعه — وذلك ما نختاره إستنادا إلى القرآن الكريم وموارد اللغة .

٢ — أما قول الفراء إنه مشتق من القرآن لأن القرآن يصدق بعضه بعضاً .

٣ — وقول الإمام الشافعي إنه مرتجل أي موضوع من أول الأمر علما على الكلام المعجز المنزل غير مهموز ولا مجرد من أل .

٤ — وقول الزجاج إنه وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع، سمي به الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لجمع الآيات والسور والأحكام والقصص فيه . أو لجمعه ثمرات الكتب السابقة — فكل هذه الأقوال لا يظهر لها وجه ، ولا يخلو بعضها من التكلف أو كونها سماعية أو نادرة ، ولا يلجأ إلى مثل هذا إلا عند الضرورة .

وعلى الرأى المختار فلفظ قرآن مهموز . وإذا حذفت همزته فللتخفيف، وإذا دخلته (أل) بعد التسمية فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف .

هذا وقد أطبق القراء على إثبات الهمزة ، ولم يحذفها إلا ابن كثير وهى من باب التخفيف .

تعريف القرآن بالمعنى الشرعى : (هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم المعجز بسورة منه المتعبد بتلاوته المكتوب فى المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس المنقول إلينا تواترا) .

وقد خرج من هذا التعريف بقولنا (المنزل على نبيه) المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

وخرج بقولنا (المعجز بسورة منه) الأحاديث القدسية على رأى من قال : إن لفظها منزل من عند الله تعالى .

وخرج (بالمتعبد بتلاوته) منسوخ التلاوة والقراءات الشاذة — وعلى هذا يكون بقية التعريف للتوضيح وليس للإحتراز .

وقد اكتفى بعض العلماء فى تعريف القرآن بقولهم :

(هو المعجز بسورة منه) .

أو (هو المتعبد بتلاوته) .

أو (هو المكتوب فى المصحف) :

واعتبروا بقية القيود لزيادة البيان والإيضاح .

نزول القرآن الكريم : قال الراغب : إن النزول يستعمل فى الأصل بمعنى الإنحطاط من علو ، ومنه قوله تعالى (رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) — وإنزال الله نعمه ونقمه على الخلق : إما بإنزال نفس الشى كإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه والهداية إليه (وأنزلنا الحديد) (أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا) . . اه بتصرف .

وقال صاحب المختار: إن معنى استنزل فلان حط عن مرتبته ، والمنزل : النزول وهو الحلول . والتنزيل الترتيب ... اه بتصرف .

وقال الفيروزبادى : إن النزول معناه الحلول ، والمنزلة موضع النزول والدرجة لا تجمع . ومكتف المكان الصلب السريع السيل ، والنزل المجتمع ... اه بتصرف .

وقال آخرون : نزل بالمكان وفيه نزلة واحدة ونزل من علو إلى سفل، وأنزل الكتاب ونزله ، وتنزلت الملائكة — ومن المجاز : نزل به مكروه وأصابته نازلة من نوازل الدهر . والبركة تنزل من السماء وله منزلة عند الأمير ، وخط نزل إذا وقع فى قرطاس يسير شىء كثير .

يقول القطب الرازى : الإنزال لغة يأتى بمعنى الإيواء وبمعنى تحريك الشىء من العلو إلى السفل ، وكلاهما لا يتحققان فى الكلام فهو مستعمل فيه فى معنى مجازى : فمن قال القرآن معنى قائم بذات الله تعالى فإنزاله أن يوجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ويثبتها فى اللوح المحفوظ .

ومن قال القرآن هو الألفاظ ، فإنزاله مجرد إثباته فى اللوح المحفوظ، ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته فى السماء الدنيا بعد الاثبات فى اللوح المحفوظ — وكل ذلك يوافق المعنى اللغوى :

وقال الزركشى . إتفق أهل السنة على أن كلام الله تعالى منزل واختلفوا فى معنى الإنزال ، فقيل معناه إظهار القرآن، وقيل إن الله أفهم كلامه جبريل عليه السلام وهو فى السماء وهو عال من المكان وعلمه قراءته ، ثم جبريل أداه فى الأرض وهو يهبط فى المكان .

ويؤيد أن جبريل عليه السلام تلقفه سماعا من الله تعالى ما أخرجه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا (إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماء

صعقوا وخروا سجدا ، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله بوحيه بما أراد ، فينتهى به على الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال الحق ، فينتهى به حيث أمر .

إثبات القرآن فى اللوح المحفوظ : لا خلاف فى أن القرآن أثبت فى اللوح المحفوظ لقول الله تعالى (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) والظاهر أنه أثبت فيه جملة لا مفرقا لأن الأسرار التى دعت إلى نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم مفرقا لا يوجد منها شىء هنا . وقد كان هذا الإثبات فى وقت وبكيفية لا يعلمها إلا الله تعالى ومن أطلعه على غيبه .

يقول أبو حيان فى تفسير قول الله تعالى (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) واللوح المحفوظ هو الذى فيه جميع الأشياء .

ويقول الإمام الألوسى فى تفسير تلك الآية : ونحن نؤمن به ، ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته ونحو ذلك .

كيفية إنزال القرآن :

إختلف فى ذلك العلماء على ثلاثة أقوال : أصحها وهو ما ذهب إليه الجمهور منهم — أنه نزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ليلة القدر ، ثم نزل مفرقا بعد هذا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلال اثنين وعشرين سنة ونصف سنة تقريبا(١) .

---

(١) نزل القرآن منجما على حسب الدواعى المتجددة والحوادث المختلفة ، ولذا فقد استمر نزوله مدة طويلة ولم ينزل جملة واحدة .

واختلفوا فى مقدار هذه المدة على أقوال ثلاثة : قال بعض العلماء إنها عشرون سنة ، وقال بعضهم ثلاث وعشرون ، وقال فريق ثالث خمس وعشرون — وتحقيق القول فيها أن النبى صلى الله عليه وسلم نبى على رأس الأربعين فى

واستندوا فى ذلك إلى ما رواه الحاكم والنسائى وابن شيبة بسندهم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (فصل القرآن من الذكر ، فوضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، فجعل جبريل عليه السلام ينزل على النبى ﷺ ويرتله ترتيلا) قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبى ، هذا وقد ساق السيوطى فى الإتقان آثارا كثيرة عن الطبرانى والبيهقى وابن أبى شيبة والبزار وابن أبى حاتم وابن مردويه وجميعها تؤيد هذا القول منها أن البيهقى وابن مردويه رويا بسندهما أن ابن عباس وسأله سائل فقال له :

أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » وقوله إنا « أنزلناه فى ليلة القدر » ، وهذا أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهر والأيام .

قال أبو شامة قوله رسلا . أى رفقا - وعلى مواقع النجوم - أى على

= الثانى عشر من ربيع الأول وأول ما بدىء به من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم واستمر على هذه الحالة ستة أشهر أو تزيد أياما ، وأول ما نزل عليه من القرآن فى شهر رمضان من نفس السنة . ولحق ﷺ بالرفيق الأعلى وجملة عمره ثلاث وستون سنة . نطرح من مدة نبوته ﷺ فترة الرؤيا الصالحة وتزيد الأيام التى قضاها بعد نزول آخر آية نزلت وهى تسعة على الأصح ، فتكون مدة نزول القرآن ثنتين وعشرين سنة وستة أشهر تقريبا .

وسبب الخلاف أن بعضهم عد فترة الرؤيا مصادقة وفترة الوحى عنه ﷺ فى زمن النزول وبعضهم تركها والحق ما علمت . من مذكرات فى علوم القرآن للدكتور أحمد السيد الكومى والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم .

مثل مساقطها - يريد أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة . ثم أنزل مفرقا يتلوا بعضه بعضا على تؤدة ورفق .

وقد ذكر السيوطى عن ابن عباس عدة روايات أخرى تفيد نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا ، فهو حديث ورد عنه من طرق متعددة يقوى بعضها بعضا . وهو وإن كان موقوفا على ابن عباس إلا أن له حكم المرفوع إلى النبى ﷺ . لما هو مقرر من أن قول الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل ولم يعرف عنه الأخذ بالإسرائيليات هو حديث حسن وحكمه حكم المرفوع . وابن عباس لم يعرف عنه الأخذ عن الإسرائيليات .

وقد كانت هذه الروايات سببا فى تأكيد المعنى الذى أخذه المفسرون من ظواهر الآيات التالية مستدلين بها على هذا الرأى فى قول الله تعالى :

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن)

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر)

(إنا أنزلناه فى ليلة مباركة)

فالذين ينكرون نزول القرآن إلى بيت العزة من السماء الدنيا ويقولون أن المراد بإنزال القرآن فى الآيات الثلاثة المتقدمة إبتداء إنزاله على النبى ﷺ لا إنزاله جملة إلى السماء الدنيا يخرجون بهذا على ظواهر الآيات بلا مسوغ . فقد جاء فيها أن القرآن أنزل فى الوقت المحدد الذى ذكر فى كل منهما . والظاهر من ذكر القرآن وإسناد الإنزال إليه فى هذه الآيات أن المراد من القرآن فيها كله لا بعضه ، وأن المراد من الإنزال إتمامه لا البدؤ فيه وهؤلاء لابد لهم من تأويل هذه الآيات بأحد هذين الوجهين وكلاهما مجاز لا حقيقة . والمجاز لا يصار إليه إلا إذا تعذرت الحقيقة . نعم قد يقال القرينة على تعذر الحقيقة هنا تؤخذ من الواقع وهو أن القرآن نزل على النبى ﷺ مفرقا . فدل هذا على التجوز بأحد هذين الوجهين فى هذه الآيات الثلاث . والجواب أن هذا كان يصح لو لم

يقم الدليل من السنة التى هى شارحة للكتاب على أن المراد فى هذه الآيات إنزاله جملة واحدة إلى السماء الدنيا (١) .

القول الثانى : أنه نزل إلى سماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر من عشرين سنة . وقيل فى ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنه . وقيل فى خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة ، فى كل ليلة ما يقدر الله سبحانه إنزاله فى كل سنة ثم ينزل بعد ذلك منجما فى جميع السنة على رسول الله ﷺ (٢) .

القول الثالث : أنه ابتدأ إنزاله فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات (٣) .

وكأن صاحب هذا الرأى ينفى نزواه جملة إلى سماء الدنيا قبل نزوله على رسول الله ﷺ وهو قول ضعيف ومردود .

الحكمة من إنزال القرآن جملة إلى السماء الدنيا : يقول الفخر الرازى فى ذلك : وإنما جرت الحال على هذا الوجه لما علمه الله تعالى من المصلحة فى هذا الوجه ، فإنه لا يبعد أن يكون للملائكة الذين هم سكان سماء الدنيا مصلحة فى إنزال ذلك إليهم ، أو كان فى المعلوم أن فى ذلك مصلحة للرسول عليه السلام فى توقع الوحى من أقرب الجهات او كان فيه مصلحه لجبريل عليه السلام ، لأنه كان هو المأمور بإنزاله وتأديته (٤) .

---

(١) البيان فى مباحث من علوم القرآن للدكتور عبد الوهاب عبد المجيد غزلان

(٢) قال بهذا الرأى مقاتل والإمام أبو عبد الله الحليمى فى المنهاج ، والماوردى فى تفسيره

(٣) قال به الشعبى وغيره وهو رأى ضعيف .

(٤) تفسير الفخر الرازى حـ ٥ ص ٩٣

وقد شرح بعض العلماء هذه الحكمة بقولهم : أن السر فى إنزال القرآن جملة إلى السماء الدنيا فيه عنايه بشأن القرآن وإعزاز شأنه وتفخيم أمره وإنزاله فى بيت يسمى (بيت للعزة) من السماء الدنيا فيه أعظم الدلالة على ذلك ، وأيضاً إلها بالشوق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه باعتبار القرب منه ، وإعلاما لأهل السماء أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

كيفية تلقى سيدنا جبريل عليه السلام للقرآن : أخوج الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم (إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجدا ، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بوحيه بما أراد ، فينتهى به إلى الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال الحق ، فينتهى به حيث أمر) .

وهذا الحديث يدلنا على أن جبريل عليه السلام كان يتلقى القرآن من الله سبحانه وتعالى سماعا على عكس بعض الآراء الضعيفة التى تقول : بأنه كان يحفظه من اللوح المحفوظ ، ثم ينزل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أنه كان يتلقفه تلقفا روحانيا ، أو كما قال الماوردى : أن الحفظة نجمت القرآن على جبريل فى عشرين ليلة ؛ وأن جبريل نجمه على النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة) فليست لهذه الأقوال أى دليل والرأى الصحيح أنه تلقاه من الله سماعا كما ورد فى الحديث الشريف .

رد شبهة حول نزول جبريل عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالوحى :

زعم بعض الناس فى ذلك أن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبى صلى الله عليه بمعانى آيات القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم يعبر عن ذلك بألفاظ من عنده ، أو يدعون أن اللفظ لجبريل عليه السلام وأن الله كان

يوحى إليه المعنى فقط وهذه الشبهة مدسوسة على المسلمين فى كتبهم ، لم يقل بها أحد من العلماء واستخدمها المستشرقون وصبيان المبشرين للطعن فى الإسلام ومحاولة إبعاد المسلمين عن كتاب ربهم مثل استخدامهم لأى وسيلة من الوسائل المشهورة عنهم فى ذلك .

يقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى : وعقيدتى أنه مدسوس على المسلمين فى كتبهم ، وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزا واللفظ لمحمد أو لجبريل ؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله ، واللفظ ليس لله ؟ مع أن الله يقول : (حتى يسمع كلام الله) إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله .

ولتعلم فى هذا المقام ، أن الذى نزل به جبريل على النبى ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس وتلك الألفاظ هى كلام الله وحده ، لا دخل لجبريل ولا لمحمد فى إنشائها وترتيبها ، بل الذى رتبها أو لا هو الله سبحانه وتعالى ، ولذلك تنسب له دون سواه ، وإن نطق بها جبريل ومحمد ، وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد ، من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة ، وذلك كما ينسب الكلام البشرى إلى من أنشأه ورتبه فى نفسه أو لا دون غيره ، ولو نطق به ألاف الخلائق ، فى ألاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فالله جلت حكمته - هو الذى أبرز ألفاظ القرآن ، وكلماته مرتبة على وفق ترتيب نبراته النفسية لأجل التفهيم والتفهم ، كما نبرز نحن كلامنا اللفظى على وفق كلامنا النفسى لأجل التفهم والتفهيم ، ولا ينسب الكلام بحال إلا إلى من رتبه فى نفسه أولا ، دون من اقتصر على حكايته وقراءته ، ولذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو محمد ، ولا لغير جبريل ومحمد ، كما لا يجوز نسبه كلام أنشأه شخص ورتبه فى نفسه أو لا إلى شخص آخر حكاه وقرأه حين اطلع عليه أو سمعه .

يقول الدكتور موسى شاهين لا شين : والذى يجب الجزم به أن جبريل نزل بألفاظ القرآن المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وتلك الألفاظ هى كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد فى إنشائها ولا فى ترتيبها . فالألفاظ التى نقرؤها ونكتبها هى من عند الله وليس لجبريل عليه السلام فى هذا القرآن سوى حكايته للرسول ﷺ ، وليس للرسول ﷺ سوى وعيه وحفظه وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنفيذه(١) .

والواقع أن القرآن قد رد على هذه الشبهة فى أكثر من آية وهذا من دلائل إعجاز القرآن من حيث العلم بأن هذه الشبهة ستثار من أعداء الإسلام من وقت نزول القرآن حتى العصر الحديث ، يقول الله تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) .

(وإذا لم تأتهم بآية قالو الولا اجتبيتها ، قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى) .

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين) .

نزول القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

نزل القرآن الكريم منجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى على

---

(١) اللآلىء الحسان فى علوم القرآن للدكتور موسى شاهين لاشين .

تفرق ولم ينزل جملة واحدة(١) ولهذا النزول المنجم حكم أرادها الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ولعباده المسلمين منها ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

(وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على المكث ونزلناه تنزيلا) من سورة الإسراء .

(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) من سورة الفرقان .

ومنها ما تذكره تحت عنوان الحكمة من نزول القرآن منجما كما سيأتى: وللدكتور أحمد السيد الكومى والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم رأى ممتاز فى نزول الكتب السابقة على القرآن هل نزلت جمله أم منجمة مثل القرآن وبأدلة ربما تقنع القارىء حيث أن أكثر المفسرين وكاتبى علوم القرآن يذكرون أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة هذا الرأى الذى نذكره يقول :

ذكر السيوطى أن المشهور على ألسنة العلماء ـ حتى كاد يكون إجماعا ـ أن الكتب السماوية السابقة كانت تنزل جملة ـ وذكر أيضا أن بعض معاصريه أنكر ذلك وقال إن الصواب أنها نزلت مفرقة كالقرآن ، ثم ذكر أن الأول هو الصواب ، ودلل عليه بما يأتى :

١ — أخرج ابن حاتم عن ابن عباس أن اليهود قالوا : يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى ، وأخرج فى رواية أخرى عنه أن المشركين هم الذين قالوا ذلك ـ فأنزل الله تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك

ورتلناه ترتيلا) ثم قال (فإن قلت : ليس فى القرآن التصريح بذلك وإنما هو على تقدير ثبوته قول الكفار .

قلت : سكوته تعالى عن الرد عليهم فى ذلك وعدوله إلى بيان حكمته دليل على صحته ، ولو كانت الكتب كلها نزلت مفرقة لكان يكفى فى الرد عليهم أن يقول إن ذلك سنة الله فى الكتب التى أنزلها على الرسل السابقة ، كما أجاب بمثل ذلك قولهم (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) فقال : وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) .

٢ — ومن الأدلة على ذلك أيضا قوله تعالى فى إنزاله التوراة على موسى يوم الصعقة (خذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة ، (وألقى الألواح) (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة) (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيتكم بقوة) فهذه الآيات كلها دالة على إتيانه فى التوراة جملة .

٣ — وأخرج الفساك وغيره عن ابن عباس فى حديث النتوق قال : أخذ موسى الألواح بعدما سكن عنه الغضب فأمرهم بالذى أمر الله أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها ، حتى نتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأقروا بها .

وأخرج بن أبى حاتم عن ثابت بن الحجاج قال : جاءتهم التوراة جملة واحدة فكبر عليهم فأبوا أن يأخذوه حتى ظلل الله عليهم الجبل فأخذوه عند ذلك .

فهذه آثار صحيحة صريحة فى إنزل التوراه جملة — اه باختصار هذه هى الأدلة التى ذكرها السيوطى لنزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة .

وللمخالف أن يجيب عنها فيقول :

إن الدليل الأول لا يدل على المطلوب ، فإن القرآن لم يرد على الكفار فى تمنيهم نزول القرآن جملة واحدة ، بل أعرض عن هذا إلى الحكمة فى تنجيمه وسكوته عن بيان أن التنجيم هو سنته تعالى فى الكتب السماوية لا يدل على شىء سوى بيان الحكمة وأنها تصلح أن تكون ردا ، ولا ينفى هذا أن الرد عليهم بطريق آخر يكون التنجيم هو سنته تعالى فى إنزال الكتب السماوية ثم إن الآية تحتمل الوقف على لفظ (واحدة) أو الإستئناف به (كذلك) والدليل إذا تطرق إليه الإحتمال سقط به الإستدلال .

وبقية الادلة يمكن أن نجيب عليها بأن الآثار فيها غير صحيحة ، وخاصة وأنها لم ترو فى كتب الصحاح وهى موقوفة — ثم ان ابن كثير ذكر فى تفسير قول الله تعالى (وكتبنا له فى الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء) أن بعض العلماء قال ان الالواح كانت مشتملة على التوراة ، وقال البعض الآخر إن الالواح أعطيها موسى قبل التوراة ، ثم قال (فالله أعلم).

وهذا الخلاف يمنع الإستدلال بالآية أو بالاثر على نزول التوراة جملة ، اذ من المحتمل أن تكون الالواح غير التوراة ، ثم ان الادلة التى ذكروها خاصة بالتوراة ولا تثبت غيرها من الكتب الاخرى .

ونحن نقول ان رأى من خالف الجمهور يظهر فيه جانب الصواب — والسيوطى عندما ساق مذهبهم صدره بقوله (قد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك) ومثل السيوطى لا يصف بهذ الوصف الا من له قدم راسخة فى العلم .

وان الحكمة الإلاهية تقضى التدرج فى التشريع والتكليف فى كل زمان وفى كل مكان ، وهذا يقتضى ان الكتب كلها نزلت على التدريج شيئا فشيئا لا جمله واحدة ، ولعل هذا ما يشير اليه قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) أى على التدريج شيئا فشيئا حسب المصالح .

وكيف نسلم أنها نزلت جملة مع اشتمالها على الناسخ والمنسوخ .

وقد حرم سبحانه وتعالى : عليهم العمل فى السبت عقب إخراجهم من البحر عند إنزال المن ، ولم يبين كيف يفعل بالعاصى فيه إلا بعد ذلك بزمن وتأمل قوله تعالى : عقب آية السبت (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فهل يعقل نزول هذا جملة واحدة ؟

وفى قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام ماهو صريح فى أن الإيحاء إليهما كان منجما — إقرأ قصة إبراهيم عليه السلام فى البقرة وقصة نوح عليه السلام فى هود ، وكذا غيرهما من الأنبياء عليهم السلام :

وتأمل فى هذه الآيات : (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحى الله الموتى) .

والمحاورة مع موسى عليه السلام فى صفة البقرة — وتعدد جرائمهم ، ونقضهم العهود والمواثيق ونزول العذاب إليهم ، وكانت الآيات تنزل عليهم منجمة حسب الظروف والملابسات (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) .

ثم لما اجتازوا البحر وعبدوا العجل كانت توبتهم ورجوعهم إلى الله :

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم) .

(والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك لغفور رحيم) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى : (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أتنزل التوراة) ،

وقوله : (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) .

وقوله : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) .

كل ذلك يشهد لنا ، لأنا لا يعقل نزول الناسخ مع المنسوخ .

ولئن قالوا إنها حكاية لتشريعات سابقة بوحى سابق ، لقلنا إنها دعوى تفتقر إلى دليل ، وتكاد تكون بعيدة عن الواقع ، إذ الأصل التشريع بنص سماوى ، وليس معنا نص إلا ماجاء فى التوراة ، ومافائدة ذهاب الأصل — وهو الوحى الذى ثبت به الحكم — وبقاء الحكاية ؟

والخلاصة أن أدلة الجمهور لا تنهض لمقاومة أدلة مخالفيهم ، وإن النصوص والعقل والواقع يشهد لهم ، ولا يضير القرآن فى شىء أن ينزل على مثال الكتب السابقة منجما ، فإعجازه كامن فيه باق إلى يوم القيامة .

كيفية تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم للوحى من الله سبحانه وتعالى :

الأساس الأصيل الذى يدلنا على كيفية تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم للوحى هو الحديث الذى يرويه الإمام البخارى بسنده عن السيدة عائشة رضوان الله عليها :

أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله ﷺ : (أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس — وهو أشده على — فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول) .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا .

من قراءتنا لهذا الحديث ودراستنا لكتب السيرة النبوية نصل إلى النتيجة التالية :

١ — أن الوحى بالقرآن كان يتم عن طريق ملك هو أمين الوحى جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو قوة عند ذى العرش مكين ، ولم يكن الوحى بالقرآن خلافا لبقية الأنواع الأخرى من الوحى يتم إلا عن طريق هذا الملك الكريم ، يقول الله تعالى : فى سورة الشعراء :

(نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) .

٢ — أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينخلع من صورة البشرية

إلى صورة الملكية ويأخذ القرآن عن جبريل عليه السلام وهذا النوع كان أشده على رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكان يتم ذلك بأن يأتيه الملك فى مثل صلصلة الجرس .

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : سألت النبى صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحى ؟

فقال : (أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض) .

قال الخطابى : والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبته أول ما يسمعه فى بفهمه بعد

ويقول الإمام السيوطى : والحكمة فى تقدمه أن يفرغ سمعه للوحى فلا يبقى فيه مكانا لغيره . وفى الصحيح أن هذه الحالة أشد حالات الوحى عليه .

ومما يقرب من هذا ما أخرجه الحاكم بسنده أن رسول الله صلى عليه وسلم: (إن روح القدس نفث فى روعى) : أى ينفث الكلام فى روعه نفثا .

٣ — أن يتمثل الملك بشرا فيأخذ منه الرسول صلى الله عليه وسلم : الوحى ، كما ورد فى الصحيح :

(وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول) :

وكان هذا أسهل الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الحكمة من نزول القرآن منجما :

إن لنزول القرآن الكريم منجماً حكماً عديدة تصلح أن تكون نموذجاً لكثير من المصلحين والمفكرين فى عصرنا الراهن لإقناع الناس بآرائهم ودعوتهم ، فلا يصل بهم الأمر فى أول دعوتهم إلى اليأس والقنوط ، فإن نزول القرآن منجما هو النموذج الأمثل لما يجب أن يتبعه الداعية فى كل عصر وحين ، ونجمل هذه الحكم فيما يلى :

١ — تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم : على أذى قومه ووعده بأن النصر النهائى يكون له ولقومه وتثبيت قلبه بما يقصد عليه من قصص الأنبياء السابقين وبيان أن الله سبحانه وتعالى معه فى كل خطوة يخطوها فى سبيل الدعوة إلى الدين الإسلامى الحنيف .

(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) سورة هود .

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) سورة الطور .

(والله يعصمك من الناس) سوره المائدة .

(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) سورة الأحقاف .

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون) .
(سورة فاطر)

(واصبر وماصبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون)
(سورة النمل)

(سيهزم الجمع ويولون الدبر) سورة القمر .

(وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن

من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون)
(سورة الأنعام)

٢ — مساعدة الرسول صلى الله عليه وسلم : على حفظ القرآن الكريم وتبليغه إلى الأمة الإسلامية ، ليعوه ويفهموه الفهم الجيد ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : يتعجل هذا الحفظ حبا فى كلام الله تعالى وإخلاصا وتفانيا فى تبليغ الأمة الإسلامية به ، فضمن الله له حفظه وفهمه بقوله تعالى : (لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) .

ويمكننا أن نضيف إلى هـذه الحكمة أيضا تسهيل حفظه وفهمه على المسلمين لأن ظروف الدعوة إلى الدين الجديد وإهتمام المسلمين بها أثر لها فى جميع الأرجاء ودفاعا عنها إلى غير ذلك من قلة أدوات الكتابة عندهم إلى إنشغالهم بأمور معيشتهم ربما لو لم ينزل عليهم القرآن منجما لشق عليهم حفظه ولما أمكنهم دراسته الدراسة الكافية : يقول الله تعالى :

(وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) :

٣ — التدرج بالأمة فى تخليهم عن عاداتهم وتقاليدهم الباطلة وتمكين العقائد والشريعة والأخلاق السامية الإسلامية من أن تغرس فى نفوس المسلمين .

روى البخارى ومسلم بسندهما عن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت:

(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء لا تشربوا الخمر لقالوا لاندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لاندع الزنا

أبداً ، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم : وإني لجارية ألعب : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده » الحديث .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال :

(قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم : المدينة وهم يشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما ، فأنزل الله « يسألونك عن الخمر والميسر » الآية :

فقال الناس : ما حرم علينا إنما قال : « إثم كبير » : وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ثم نزلت آية أغلظ من ذلك :

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر » إلى قوله « فهل أنتم منتهون » :

قالوا : « إنتهينا ربنا » الحديث :

ويمكننا أيضاً أن نضيف إلى تلك الحكمة أن تأخر الناسخ عن المنسوخ من الأمور الحتمية التي توجب نزول القرآن منجما ، فإن القرآن كان ينزل أحياناً بآيات ناسخة لبعض آيات سبقت .

٤ — بعث الطمأنينة الدائمة على المدى الزمني لنزول القرآن منجما في نفوس المؤمنين به بوعدهم بالنصر والفوز على أعدائهم ، يقول الله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من

بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

٥ — إن الأسلوب القرآني على تباعد زمن نزوله ، كان في غاية الإنسجام والترابط والإحكام ، وهذا من إعجاز القرآن ، فإنك لو نظرت في أسلوب المفكرين والأدباء والشعراء ، فإنك لا بد تجد تفاوتا وإختلافا على المدى الزمني لتآليفهم في الأسلوب ، بل وصل الأمر ببعضهم إلى وجود التناقض في أفكارهم نفسها ، لقد استمر نزول القرآن ثلاثا وعشرين عاما يتحدى الناس جميعاً أن يأتوا بمثله فعجزوا عجزوا بينا ، حتى أن بعضهم امتنع عن قول الشعر ونتيجة للإحساس بهذا العجز أمام روعة الأسلوب القرآني رغم أنه قطع عليهم معذرتهم بنزوله مفرقا إذ لو كان نزل جملة لقالوا : إن هذا شيء جاءنا مرة واحدة ولا نستطيع معارضته .

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الحكمة إحساس الرسول ﷺ الدائم بالنصر والفوز على أعدائه حيث عجزوا عن الإتيان بأقصر سورة من مثله والشعور بأنه ﷺ على صواب وأن الكفار على خطأ بين . (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

٦ — تنظيم أمور المجتمع الإسلامي الجديد : فقد كان القرآن الكريم ينزل منجما للفت أنظار المسلمين ، لتصحيح بعض أخطاء وقعوا فيها وظنوا أنها صواب ولعلنا بدراستنا للآيات التي نزلت في غزوة أحد نتبين هذا الأمر واضحاً فيها ، وأيضاً قوله تعالى عن غزوة حنين (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها

وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) .

وأيضاً تحذير الرسول ﷺ والمسلمين من أعداء الدين الجديد ، ومؤامرات المنافقين وخداعهم (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) إلى آخر الآيات المتعلقة بذلك فى سورة البقرة ، ومواضع أخرى كثيرة فى القرآن الكريم .

وأيضا حل الأقضية والحكم فيها والإجابة على أسئلة السائلين من المسلمين والمشركين وأهل الكتاب ليعرفوا الدين الجديد ويتثبتوا من صدق رسالة الرسول الكريم ﷺ ، وعلى سبيل المثال بالنسبة للحكم فى القضايا قول الله تعالى فى سورة المجادلة (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير .... إلى قول الله تعالى (وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم) من قصة خولة بنت ثعلبة عندما شكت إلى رسول الله ﷺ من أن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها .

ولعل الآيات التى نزلت فى سورة النور والمتعلقة بحديث الإفك وهى عشر آيات بدأت بقول الله تعالى (إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم) إلى قول الله سبحانه وتعالى (أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

وبالنسبة لإجابه السائلين على أسئلتهم نذكر بعض أمثلة منها قول الله

تعالى فى سورة الاسراء (ويسألونك عن الروح ؟ قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وفى سورة الكهف : (ويسألونك عن ذى القرنين ؟ قل : سأتلوا عليكم منه ذكروا) . . الخ الآيات .

وفى سورة البقرة : (ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو) (ويسألونك عن اليتامى ؟ قل : إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم فى الدين)